

كان القمين بهذا الشاعر ألا يدمع للهزيمة في بدر إن كان ذا بأس وقوة وجلد ولكن يبدو أن المصاب كان أشد عليه من أن يصبر أو يتصبر، ثم يعرف بالفجيعة في قومه ويصفهم بالسراة ويلتمس شيئا من العزاء والسلوى وهو يحاول أن يواسى من فجعوا فيقول إن الملوك تصرع، ثم يذكر ذل القوم الذين جزعوا لمقتل سيد من ساداتهم فحدعت أنوفهم. وهو عند هذا الحد من قوله يذكر ما وقع إلا أنه بعد ذلك يشحذ الهمم ويقول إن هؤلاء المنهزمين قووا من عزيمتهم وعقدوا النية على معاودة القتال وهذا من كلامه واقع لا شك فيه. وانبرى له حسان معارضا بقوله:

أبكى لكعب ثم عل بعبرة	منه وعاش مجدعا لا يسمع
ولقد رأيت يبطن بدر منهم	قتلى تسح لها العيون وتدمع
فأبكى فقد أبكىت عبدا راضعا	شبه الكليب إلى الكليبة يتبع
ولقد شفى الرحمن منا سيذا	وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم في قلبه	شغف يظل لخوفه يتصدع

فحسان يعارض كعب بن الأشرف بأبيات من نفس البحر والروى متحديا، كما يذكر البكاء وكأنما يريد أن يعيره ويعير قومه بهذا البكاء وإن قال إن في بدر من القتلى من يرثي لحالمهم. وكأنما يريد حسان أن يظهر الشماتة بهم وهو يضرب له على الوتر الذى ضرب عليه، ويريد له أن يبكى ولكن بكاءه ليس على عظيم قوم بل على عبد رضيع وهو أذل من يكون ويشبهه بكليب إمعانا فى التحقير، وربما أراد بالكليبة التى تبعها هذا العبد عاتكة بنة أبي العيص بن أمية وهى التى قصدها كعب بن الأشرف ونزل عندها فى مكة فأكرمت وفادته وأكرمته، فحسان يهجوها لأنها تستحق الهجاء ثم يتحدث عن الحارث بن هشام الذى فر من المعركة وبذلك يشع به ويعيره. فحسان يذكر ما وقع كما وقع ويقف منه موقف المؤرخ الذى يعبر عن الواقع التاريخى بالشعر.

وكان للهزيمة ببدر فى نفس كعب بن الأشرف أثر كحد السيف، فأكل الحقد قلبه وملأت الضغينة أرجاء نفسه، وما كاد يهتدى أى سبيل يسلك ليشفى غيظه ويشفى أوار موجدته إلى أن تفتقت حيلته عن أن يشب بنساء المسلمين وله النية الخبيثة الخسيصة لإثارة المسلمين بما يطعن فى عرضهم ويخدش كرامتهم فى نساءهم. وهنا ذكر مقتل كعب بن الأشرف.